حفلة استقبال

حضرة صاحب المعالى عبد الحميد بدوى باشا

فى يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٥
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

لأول مرة فى تاريخ مجمع فؤاد الأول للغة العربية احتفل المجمع باستقبال عضو جديد من أعضائه استقبالا له طابع أدبى خاص. وينتظر أن يصبح هذا النوع من الاستقبال تقليداً من تقاليد المجمع فيما يستأنف من حياته الطويلة.

وكان العضو الجديد الذى استقبل فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر الماضى حضرة صاحب المعالى عبد الحميد بدوى باشا وزير الخارجية، وقد انتخب فى آخر الدورة الماضية، وصدر المرسوم بتعيينه خلفاً للمغفور له محمد توفيق رفعت باشا الذى كان رئيساً للمجمع.

وقد جرت العادة فى الأكاديمية الفرنسية بأن تفتتح حفل الاستقبال بخطبة يلقيها العضو الجديد يشكر فيها زملاءه الخالدين ويثنى فيها على سلفه.

ثم يجيبه زميله الذى كلِّف استقباله فيثنى عليه ويحلل آثاره.

ولكن مجمع فؤاد الأول للغة العربية عكس هذا التقليد وجرى على العادة المصرية المألوفة، فتكلم الدكتور طه حسين بك، ثم تكلم حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا وكان رئيساً للجلسة بالنيابة، ثم تكلم العضو الجديد.

ونحن ننشر النص الكامل لهذه الخطب تسجيلا لهذا التقليد الأكاديمى الجديد.

خطبة حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

سيدى الزميل العزيز

فى أوائل العام الدراسى سنة أربع وتسعمائة وألف استقبلت مدرسة الحقوق فى القاهرة شابًا لم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره. ولكنه كان على ذلك جوّاب آفاق، قد تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر؛ لأنه كان على حداثة سنه هذه قد خرج من مصر وزار أقطاراً أخرى، ثم عاد إلى مصر واستقرّ حيث كانت تستقر أسرته فى الاسكندرية، وأخذ يتم تعليمه — ولا أقول يبدأ تعليمه — فقد علمت أنه ابتدأ تعليمه فى منزل من منازل الوحى الكريم فى المدينة المنورة.

هذا الفتى تخرّج فى مدرسة العروة الوثقى وظفر منها بشهادة التعليم الابتدائى وكان من المتقدمين تقدماً ملحوظاً. ويظهر أنه شغف بهذا التقدم وأمضى بينه وبين التقدم عهداً منذ ذلك الوقت، فجعل فى المدرسة الثانوية لا ينتقل من فصل إلى فصل إلا كان فى الرعيل الأول. حتى إذا كانت الشهادة الثانوية كان هو السباق وكان أول المتخرجين فى التعليم الثانوى المصرى.

هذا الفتى أقبل فى سنة ١٩٠٤ على مدرسة الحقوق، ولكنه ظل محتفظاً بهذا العهد الذى قطعه وأمضاه بينه وبين السبق، فظل سباقاً لزملائه وأترابه حتى ظفر بإجازة الليسانس.

ثم همّ أن يكون محامياً، ولكنه صرف عن المحاماة لأنه آنس من نفسه ميلاً إلى العكوف على الدرس — آنس من نفسه انصرافاً عن هذه الحياة الموزعة التى تنفق بين يدى الجماهير إلى حياة أخرى يفرغ فيها لنفسه ويعكف عليها مستقصياً أصول العلم الذى أحبه منذ كان طالباً فى المدارس الثانوية.

عند ما كان طالباً فى المدارس الثانوية فى مدرسة رأس التين لم يكن كغيره من الطلاب مشغوفاً بهذا الدرس اليسير الذى يمازجه لعب يسير أيضاً، ولكنه كان مشغوفاً بالتعمق والاستقصاء والبحث حتى فى هذه السن المبكرة. وقد ظهرت آثار هذا الميل، فعنى به أساتذته عناية خاصة وشغف به أترابه شغفاً خاصا

وأكبروه وإن كان صغير السن ، وجعلوا يتخذونه لأنفسهم قدوة ، وجعلوا يتخذون سيرته أسوة حسنة لهم . وفُتِن به بعض أساتذته فتنة ظاهرة ، حتى لقد مضت أعوام وأعوام ، واختلفت الطرق بهذا الشاب فى حياته العلمية والعملية ، ثم ذكره أستاذ من أساتذته الانجليز فجأة لأنه رأى بعض أترابه فى بعض مكاتب الوزارات . رأى بعض أترابه فذكر عبد الحميد بدوى ، وقرر ألا ينصرف وألا يعود وألا يترك مصر — وكان على جناح سفر — حتى يجدد العهد بهذا التلميذ النجيب . وفى ذلك الوقت ضرب الميعاد ليلتقى الأستاذ بتلميذه وليجدد الأستاذ ذكرى مدرسة رأس التين الثانوية .

وكان لعبد الحميد بدوى فى المدرسة الثانوية أتراب نابهون ، منهم المرحوم أحمد أمين بك . ويظهر أن التنافس البرىء الرفيع كان هو الذى يصل بين هذين الشابين . فقد كان كلاهما ذكيًا ، ذكى القلب ، عميق التفكير ، نافذ البصيرة . وكان إعجاب الطلاب والأتراب مقسما بين هذين الشابين . فقد حدث أن أستاذاً من أساتذته الانجليز استشير أواستؤمر فيهما فأفتى هذه الفتوى الظريفة وهى : أن أحمد أمين أسرع الى اكتشاف المشكلات ، وأن عبد الحميد بدوى أسرع إلى حل هذه المشكلات .

أبى عبد الحميد بدوى أن يكون محامياً . ولكنه اتصل بالنيابة واشتغل نائباً وقتاً قصيراً . ولكنه على قصر هذه المدة التى تولى فيها أعمال النيابة العمومية لم يستطع إلا أن يحتفظ بعهده الذى أمضاه بينه وبين السبق والتفوق . فقد ترافع أمام المحكمة فى قضية سياسية كان الرأى العام فى ذلك الوقت معنيًا بها أشد العناية ، وقد كانت مرافعته خطيرة حقًا . وآية ذلك أنه كسب القضية . ولكنه كسب القضية وغضب فى وقت واحد . غضب لشىء أظنه يأسف عليه الآن . غضب لأن خصمه المحامى لقّبه بالشاب . فأى عجب فى أن يغضب شاب لم يتجاوز العشرين من عمره لأنه سمى شابًا أو لقب بالشاب ! أظن أنه الآن يود لو استطاع سماع الأستاذ اسماعيل الشيمى رحمه الله يسميه فيقول : كما قالت الحكومة على لسان نائبها الشاب . "

على أن عبد الحميد بدوى لم يطل العمل فى النيابة ، وإنما سافر إلى فرنسا ليتم درسه هناك ، وفى مدينة جرينوبل أتم دروسه وقدم رسالة الدكتوراه .

وقد قرأت بالأمس التقرير الذى أرسل من جامعة جرينوبل إلى وزارة

المعارف فى سنة ١٩١٢ ، فإذا هذا الشاب لا يزال مصمماً على أن يكون سباقاً ، وإذا هذا الشاب الذى لم يبلغ الخامسة والعشرين بعدُ قد استطاع أن يحمل أساتذته فى جرينوبل على أن يمنحوه — كما يقول الأستاذ العميد — أكثر مما يستطيعون أو كل ما يستطيعون أن يمنحوه. فهم قد منحوه الدكتوراه مع أرفع ألقاب النجاح وأضافوا إلى ذلك تهنئة الممتحنين. ويقول الأستاذ العميد فى تقريره إلى وزارة المعارف المصرية إن هذه الرسالة التى نال بها عبد الحميد بدوى حق الامتياز ، رسالة أساسية فى الفقه المدنى لا يستطيع باحث منذ اليوم أن يستغنى عنها إذا أراد أن يعالج هذا الموضوع الذى عالجته. فهو قد استقصى الموضوع استقصاء نادراً حقا ، تعمقه فى الفقه الرومانى واستنبط كيف نشأت هذه الفكرة وكيف استغلت وكيف استنبط منها آثارها المختلفة ، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه من قواعد فى هذا الفقه الرومانى القديم. ثم امتاز عبد الحميد بدوى امتيازاً خاصًّا عند ما درس هذه الفكرة فى الفقه الفرنسى فى القرون الوسطى. وهذا القسم من رسالته كما يقول الأستاذ العميد هو خير ما فى الرسالة ، ولا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال لكل من يدرس هذا الموضوع. ثم عرض هذه الفكرة فى الفقه الفرنسى الحديث أحسن عرض وتعمقها أحسن تعمق. وإن كان بعض أعضاء لجنة الامتحان كان يود لو استعرض هذه الفكرة فى الحقوق أو الفقه الأجنبى غير الفرنسى ، لكن العميد يضيف : أنه لم يكن لهذا سبيل لأن عبد الحميد بدوى رسم لنفسه خطة معينة للدرس ليس فيها الفقه الأجنبى.

عاد عبد الحميد بدوى موفقاً سباقاً كما تعود أن يكون موفقاً سباقاً. ومنذ ذلك الوقت أصبح عبد الحميد بدوى هو الشاب ثم الرجل الذى عرفناه والذى نعرفه الآن ، وقد كملت خصائصه وتمت مزاياه ، وأصبحنا نستطيع أن نتعرفه وأن نتعرف عقله ومزاجه الفكرى الثقافى وشعوره أيضاً. فهو صاحب فكر وشعور ، وليس من هؤلاء الذين قصروا حياتهم على الناحية العقلية الخالصة.

وأظنه يغفر لى إن تحدثت عن هذه الناحية الشعورية من نواحى حياته الخصبة. فقد يخيل إلىَّ أنه حين كان طالباً فى المدارس الثانوية ، وحين كان طالباً فى مدرسة الحقوق ، لم يكن صاحب درس وتعمق للعلم والثقافة فحسب ، ولكنه ارتكب هذه الخطيئة التى يرتكبها كثير من الناس ، فداعب ربة الشعر مداعبة

رقيقة رشيقة لم يلبث أن انصرف عنها . ولست آسف لشىء كما آسف لأنى لم أحفظ ما روى لى من شعره أيام الصبا . فقد أنشدنى بعض من أنشدنى الشعر شيئاً من شعر ذلك الفتى الذى كان يدرس فى المدارس الثانوية وفى مدرسة الحقوق . والذى أذكره أنه كان شعراً عذباً ، وكان شعراً غزلاً فيه كثير من العذوبة والرقة ولكن فيه كثيراً أيضاً من الجزالة والصرامة .

ثم لم يكن عبد الحميد بدوى يكتفى بهذه المداعبة الخالصة بينه وبين ربة الشعر ، بل كان يحب مجالس الشعراء أيضا . فقد حدثت أنه كان فى أثناء هذا الشباب لا يكتفى بالانصراف إلى كتب الحقوق ومجالس الأساتذة ، ولكنه كان يحب لوناً من مجالس الشعراء ، وهو بنوع خاص هذا اللون الشعبى الذى كان يجمع بين الفكاهة الشعبية وهذه السذاجة المصرية الحلوة وبين شىء من البؤس والألم الذى ينضج النفس ويكون الرجولة ، ثم هذا النحو من الإحساس الرفيع بحقائق الحياة . وكان عبد الحميد بدوى فيما حدثت يختلف أحيانا الى هذه المجالس كمجلس إمام العبد .

هذا العصر الذى أقبل فيه عبد الحميد بدوى على القاهرة واختلف فيه إلى مجالس الجد فى مدرسة الحقوق ، وإلى مجالس الدعابة فى بعض الأندية حيث كان الشعراء يضحكون ويخفون الألم بهذا الضحك ويداعبون ويخفون البؤس بهذه الدعابة ، هذا العصر كان عصراً خطيراً حقًّا فى تاريخ نهضتنا التى نحياها الآن . كان أشبه شىء بمنحدر مرتفع قد ارتقت إلى قمته جماعة من أعلام الحياة المصرية ، وجعلت جماعة أخرى من الشباب تصعِّد من أسفل هذا المنحدر تصعيدا يختلف قوة وضعفاً ، بين هذه الجماعة من يصعدون تصعيداً سريعاً ، وبينهم من يصعدون تصعيداً فيه شىء من البطء والأناة . وكان هؤلاء الذين وصلوا الى القمة ينظرون إلى هذه الجماعة الناشئة المصعدة نظرة فيها كثير جدا من الرفق وفيها كثير جدا من الحب والتشجيع . وربما أضافوا إلى نظرتهم هذه الرقيقة المشجعة إشارات بالأيدى ودعاء بالألسنة يشجع هؤلاء الشبان فى أن يمضوا فى طريقهم وأن يحتملوا جهد التصعيد وأن يستزيدوا من العزم والحزم والقدرة على احتمال المصاعب .

وكان على هذه القمة بين هؤلاء الأعلام جماعة ، لا أظن أنها تضيق إذا ذكرت الآن أو سميت بعض أعضائها . كان على هذه القمة أحمد لطفى السيد باشا

وعبد العزيز فهمى باشا . وكان لطفى السيد بناديه فى الجريدة وعبد العزيز فهمى الذى كان رفيقاً له لا يفارقه وجمع من أصحابهما . كان هؤلاء ينظرون الينا نحن الشبان الذين كنا فى أسفل الجبل نحاول أن نصعد هذه النظرة التى يملؤها الحب والرفق والعطف والتشجيع ، وربما أشاروا إلينا بالأيدى وربما دعونا أن نتابعهم حتى نبلغهم قليلاً قليلاً . وربما تكلفوا الهبوط إلينا ليأخذوا بأيدينا . وكنا جميعا : عبدالحميد بدوى ومحمدحسين هيكل وغيرنا ننظر إلى هؤلاء السادة فى كثير جدًا من الإعجاب وفى كثير جدا من الحب . وكنا نتحرق شوقاً إلى أن نصل إليهم ونتحدث ونسمع ونستفيد .

ومازال هؤلاء السادة يصعدون ونحن نصعد من ورائهم وهم يلتفتون إلينا بين حين وحين يشيرون ويدعون ويشجعون حتى أتيح لنا أن نبلغ مكانا من هذا الجبل . وإذا نحن رفقاء ، وإذا هم يلحظوننا لا كما يلحظ الآباء أبناءهم الصغار بل كما يلحظ الآباء أبناءهم الكبار . وإذا هم يفرحون إذ يرون أبناءهم ينهضون بهذه المهمة ويحتملون بعض المصاعب ويكابدون بعض الخطوب .

وكان أسرع هذا الجيل الناشئ إلى رضا هؤلاء السادة وإلى إعجابهم وإلى عنايتهم به وإلحاحهم فى العناية عبد الحميد بدوى الذى نستقبله اليوم . كان سابقنا جميعاً إلى رضا هؤلاء السادة ، وهو الذى فاز بالحظوة أكاد أقول من دوننا كافة فآثروه إيثارا غريبا ؛ لأنه بالطبع كان أحقنا بهذا الإيثار .

ولم يكد يعود من أوربا ويستقر أستاذاً فى مدرسة الحقوق حتى أصبح واحداً من هؤلاء السادة . وإذا هو على شبابه أب من الآباء ، وإذا هو يلحظ رفاقه الذين كانوا يرافقونه فى التصعيد كما يلحظهم هؤلاء الشيوخ . وإذا هؤلاء الشباب ، هؤلاء الرفاق الذين بدءوا معه الرحلة ينظرون إليه كما كانوا ينظرون إلى آبائهم وإلى شيوخهم هؤلاء . وإذا هم ينتظرون منه أن يشير إليهم مشجعاً ، وأن يدعوهم بلسانه مشجعاً أيضاً .

وما أنا فى حاجة إلى أن أتحدث عن المناصب التى ارتقى إليها عبدالحميد بدوى ، فهو كان أستاذاً وقاضياً وسكرتيراً فنيًا لثروت باشا . وهو كان سكرتيراً عامًا لمجلس الوزراء : وهو كان مستشاراً ملكيًا ثم رئيساً للجنة قضايا الحكومة ثم وزيراً للماليّة ، وهو الآن وزير للخارجية . كل هذه الأشياء لا غناء فى ذكرها لأن الناس جميعاً يعرفونها . لكن هناك أشياء قليلة هى التى تستحق

أن أقف عندها وأن أتحدث عنها قليلاً ، وهى هذه البيئات التى اختلفت على عبد الحميد بدوى أو التى ألم بها عبد الحميد بدوى . فعبد الحميد بدوى طالب دائماً ، متعلم دائماً . وليس من هؤلاء الناس الذين يعتبرون إجازة الدراسة الليسانس أو الدكتوراه كما كان يقول له الملك العظيم فؤاد ورقة طلاق بينهم وبين العلم . لكن عبد الحميد بدوى لا يبلغ من العلم درجة إلا ارتقى لأرفع منها . ولا يستطيع أن يفهم هذه الحياة الغافلة التى تكثر النظر فى المرآة ، والتى تعجب بما ترى . ولكنه ساخط دائماً ، طموح دائماً ، طامع دائماً ، لا يبلغ شيئاً إلا طلب خيراً منه ، لا يرضى عن قسط يبلغه من علم أو أدب أو ثقافة . فهو متعلم دائماً مهما يبلغ من الرقى فى حياته الاجتماعية ، ومهما يبلغ حظه من العلم والثقافة . وأؤكد لكم أنه أعظم جداً مما نظن .

لا يمر عبد الحميد بدوى ببيئة إلا انتفع فى نفسه وعلمه وثقافته وتجربته العقلية بهذه البيئة أكثر مما تنتفع منه هذه البيئة . ومع ذلك أى الناس يستطيع أن يقول إن عبد الحميد بدوى مر فى بيئة من البيئات دون أن يترك فيها أثراً رائعاً .

كان عبد الحميد بدوى متصلا بأرفع بيئة فى مصر من الناحية العقلية ومن ناحية هذا الترف الذهنى النادر فى بلاد الشرق . كان متصلا بثروت ، وكان متصلاً بعدلى ، وكان مرافقاً دائماً للطفى السيد وعبد العزيز فهمى وأمثالهم . وقد تأثر بهذه البيئة فى تكوين ثقافته التى أسميها الثقافة المترفة ؛ فهى ليست الثقافة اليسيرة السهلة التى تنال من قرب لكنها ثقافة متخيرة أشد التخير وأدقه . متخيرة فى نوعها ، وفى شكلها ، وفى صورتها ، وفى طبيعتها أيضاً .

فعبد الحميد بدوى منذ كان طالباً يبحث عن الجيد المختار فى الأدب العربى ، ومن الجيد المختار فى الشعر القديم والنثر القديم ، ويتقن ما استطاع إلى الإتقان سبيلا هاتين اللغتين اللتين نعنى بهما فى مصر وهما اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، حتى بلغ من هاتين اللغتين أقصى ما يستطيع أن يبلغه إنجليزى قادر من لغته الإنجليزية ، وأقصى ما يستطيع فرنسى ماهر أن يبلغه من لغته الفرنسية . ولا أقول هذا مبالغة ولا غلوًّا ، ولكنى أقول عن خبرة وعن شهادة القادرين على أن يشهدوا .

فعبد الحميد بدوى حين يتحدث إلى الإنجليز وحين يتحدث إلى الفرنسيين

يخلبهم أكثر مما يخلبهم الإنجليزى أو الفرنسى، لا فى النطق فحسب، فالنطق أيسر الأشياء، لكن فى التعمق فى اللغة وفى إتقانه لأسرارها ودقائقها وأدبها الرفيع. لايفوته من الأدب الانجليزى أو الفرنسى شىء لا فى القديم ولا فى الحديث ولا فيما ينشأ ويظهر بين وقت ووقت.

فعبد الحميد بدوى من أكثر الناس قراءة، ولعله أن يكون أكثر الناس قراءة فى مصر، ولعله أن يكون أكثر الناس قراءة فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. وهو بهذا استطاع أن يكون لنفسه هذه الثقافة العالية الرفيعة المترفة المتخيرة التى لايستمتع بها كثير من المصريين فى هذا العصر

وأيسر ما يصور لنا هذه الثقافة الممتازة الرفيعة أى أثر من هذه الآثار القليلة التى سمح عبد الحميد بدوى أن تنشر وأن تذاع على الناس. وأؤكد لكم أنى كنت اليوم صباحاً أقرأ محاضرة له عن حرية القول. وأؤكد لكم أنى لا أذكر أنى تأثرت بشىء من هذه الناحية ناحية العلم العميق والدرس المستقصى والظرف فى التعبير، بل الظرف فى التصوير والتفكير، كما تأثرت بهذا الفصل أو بهذه المحاضرة الرائعة التى استقصى فيها عبد الحميد بدوى فى صحف قليلة جداً. ولكن أى استقصاء وأى دقة؟ تاريخ حرية القول وما اختلفت على حرية القول من أطوار من الناحية الاجتماعية ومن الناحية السياسية، ثم من الناحية القانونية والدستورية بنوع خاص.

ثم هو على هذا كله لاينتهى من بحثه إلا بعد أن يستقصيه أحسن استقصاء وأدقه بالقياس إلى حياتنا العصرية الحديثة.

وغير هذا من هذه الفصول القليلة التى سمح بنشرها عبد الحميد بدوى يكفى أن يقرأها أى إنسان مثقف ليحصل على فكرة واضحة من هذا النوع من الثقافة التى يستمتع بها عبد الحميد بدوى. فهى كما قلت ليست ثقافة عادية، وليست ثقافة شائعة، وليست ثقافة تمتاز بالسعة والعمق فحسب، ولكنها تمتاز قبل كل شىء بهذا الظرف وهذا الترف وهذا الارتفاع فى النوع والشكل جميعاً.

ولقد كنت أقرأ من فصول عبدالحميدبدوى على قلتها، فأذكر مطلع قصيدة غزلية لبعض الشعراء الفرنسيين ـ ولا أدرى كيف يوجه الغزل إلى عبد الحميد

بدوى ، ولـكن هذا المطلع يصور عقله أصدق تصوير ـ فهذا الشاعر يقول لصاحبته : إن نفسك منظر رائع من مناظر الطبيعة المختلفة . فعبد الحميد بدوى نفسه هـذه النفس . نفسه رائعة حقا لأنها نفس كثيرة متعددة ، ليست نفساً واحدة لكنها أنفس لاتكاد تحصى . أنفس ترونها فى الأدب ، وترونها فى العلوم ، وترونها فى الفقه ، وترونها فى الاقتصاد ، وترونها فى السياسة ترونها فيما شئتم من موضوعات المعرفة الإنسانية ؛ فهى ليست غريبة فى أى فرع ، وهى ليست غريبة فى أى مسألة .

فعبد الحميد بدوى إذا تحدث فى مسألة لايتحدث إلا بعد أن يقتلها درساً وبحثاً وتعمقاً واستقصاء . وإذا سمح لنفسه أن يتحدث فى أشياء ، فإنما يتحدث عن علم دقيق عميق كأشد ماتكون الدقة والعمق . ولذلك لايشعر السامع له أو المتحدث إليه أو القارئ لبعض ماينشر أنه غريب فى أى بحث أو أى نوع من أنواع المعرفة التى يتحدث عنها .

وعبد الحميد بدوى يذكرنى بأديب فرنسى عظيم . كنت أقرأ أيضا هذا الصباح خطبته فى شكره للمجمع اللغوى الفرنسى عند ما انتخب عضواً من أعضائه ، وهو الشاعر الفرنسى والـكاتب الفرنسى « پول ڤاليرى » ، وأخص مايمتاز به پول ڤاليرى أنه صاحب عقل قبل أن يكون صاحب أى شىء آخر . صاحب عقل ، فهو يحكم عقله فى قلبه ، ويحكم عقله فى شعوره ، ويحكم عقله بنوع خاص فى كل مايصدر عنه من لفظ شعراً كان أو نثراً . وليس اصعب من تحكيم العقل فى الشعر ؛ ومع ذلك فپول ڤاليرى هو شاعر العقلاء أو عاقل الشعراء كما تشاءون ، وهو الذى أخضع الشعر لسلطان العقل إخضاعاً تامًّا ، وهو الذى نستطيع أن نقرأ شعره ، فاذا هو يمس قلوبنا ويمس عواطفنا ، ولـكنه يمس عقولنا قبل كل شىء .

ثم هو إلى جانب إكباره للعقل ، صاحب ظرف وترف وارتفاع عن هـذه الأشياء الشائعة التى تتمثل فيها ضخامة الجماهير وتتمثل فيها عواطف الدهماء .

وپول ڤاليرى يمثل هذه الإرستقراطية العقلية الممتازة . وأؤكد لكم أننى ماقرأت لعبد الحميد بدوى شيئاً ولا سمعته يخطب ولا تحدثت إليه فى موضوع من الموضوعات إلا ذكرت پول ڤاليرى . وكل ما بين الرجلين من الفرق ، أن عبدالحميد بدوى مشغوف بالفقه شغفاً خاصًّا ، وينظر إلى الأدب نظرة فيها شىء

من الحب ولكن فيها شيء من الإشفاق والرفق بهؤلاء الأدباء الذين ينفقون حياتهم فى الكلام .

لست أدرى لو أننا أردنا أن نحصى الأعمال الفنية الرائعة التى قدمها عبد الحميد بدوى إلى جمهور المثقفين أنظفر بشيء قليل أم نظفر بشيء كثير ؟

أما الذين يتتبعون الفهارس ويتتبعون كتب الببليوغرافى فإنهم لا يظفرون لعبد الحميد بدوى بشيء كثير لأنه مقل .

كره المحاماة لأنه بخل بنفسه على الجماهير . وأحسبه كره التأليف لأنه بخل بنفسه على الجماهير لأن يؤلف كتاباً بعد رسالة الدكتوراه ، لكنه ألقى بعض المحاضرات وسمح بنشرها ، فمحصولها المادى فى الفهارس وفى الببليوغرافى قليل.

ولكن أهذا حقاً هو الذى يمكن أن نقدر به جهود عبد الحميد بدوى فى الثقافة وفى الفن ؟ أظن لا . وأظننا عند ما نريد أن نحصى أعمال عبد الحميد بدوى يجب أن نذهب إلى محفوظات الدولة ، إلى الوزارات التى عمل فيها ، وإلى رئاسة مجلس الوزراء ، وإلى أقلام القضايا . وهنا يحتاج عبد الحميد بدوى إلى « بيوغراف » يحتاج إلى رجل خاص يخصص نفسه للأعمال الرائعة التى تركها عبد الحميد بدوى فى محفوظات الدولة ، لاتباح للجماهير ولكنها ستباح يوما من الأيام للتاريخ ، فيعرف التاريخ يوماً خيراً مما نعرف ويثنى التاريخ أحسن مما نثنى .

ليقل القائلون فى عبد الحميد بدوى ما يشاءون . ولكنى الآن أكتفى بأن أقول فى عبد الحميد بدوى أننا حين نستقبله اليوم فى مجمعنا إنما نستقبل صفحة من أقوم وأرفع صحف التاريخ المصرى الحديث . فمنذ نهضت مصر نهضتها السياسية الأخيرة لم يتصل مصرى بإنجليزى لمفاوضة إلا شارك فيها عبد الحميد بدوى ، وشارك فيها أحسن مشاركة وأقومها .

وواضح جداً أيها السادة ، أننا لا نعرف من مفاوضاتنا مع الإنجليز إلا القليل ، وان الذى نجهله وسيعرفه التاريخ أكثر جداً مما نعرفه .

إذاً : فعبد الحميد بدوى وما أبلاه فى مفاوضات عدلى وثروت ومحمد محمود وفى كل الاتصالات التى كانت بين المصريين والإنجليز ، هذا البلاء الرائع قد قدر علينا نحن بحكم الظروف أن نجهله . ولكن ماوصل إلينا من بواكيره ومن بوادره يعطينا فكرة عنه خطيرة حقاً ، ككل شيء يمكن أن يصدر عن عبد الحميد بدوى .

ثم لم يقف بلاء عبد الحميد بدوى فى هـذه الناحية من اتصالنا بحلفائنا الإنجليز ، لـكن عبد الحميد بدوى يذكر دائماً فى كل اتصال بين مصر وبين أية دولة أجنبية منذ ثورتنا الوطنية .

فعبد الحميد بدوى له أعظم الأثر فى الصلة بيننا وبين أوربا فى مسألة إلغاء الامتيازات . وموقفه فى « مونتريه » أو ما نعرفه عن موقفه فى مونتريه أظهر وأقوى من أن يحتاج إلى تفصيل .

وعبد الحميد بدوى صاحب الاتصال فى هذه الدقائق التى نجهلها ، وتعرفها الحـكومات المصرية على اختلافها ، وفى تكوين هذه الصلات الدقيقة المعقدة التى تصل بيننا وبين الدول على اختلافها فى كل ناحية من هذه النواحى .

كانت الحـكومة وما تزال الحـكومات المصرية ترجع إلى عبد الحميد بدوى لأنه هو وحده الذى يحسن توجيه الحـكومات فى مثل هذه الأشياء .

وأخيراً ذهب عبد الحميد بدوى إلى سان فرنسيسكو ، وعاد ومعه ميثاق سان فرنسيسكو الذى دافع عنه أمام البرلمان حتى أقره البرلمان .

ولست أدرى أراض أنا أم غير راض عن هذا الميثاق . ولـكنى لا أشك أن عبد الحميد بدوى نفسه ليس راضياً عن هذا الميثاق . وما عرفت عبد الحميد بدوى راضياً عن شىء . ولذلك أقول إنه غير راض . وهنا تظهر المزايا الحقيقية لعبد الحميد بدوى . فهو ليس صاحب خيال ؛ وهو ليس صاحب اندفاع وراء المجردات . لـكنه صاحب خيال بديع بعيد المدى ، وصاحب نظرات واقعية . فهو لا يسترسل مع الخيال كما يهيم الأدباء والشعراء والفلاسفة ، لـكنه لا يستسلم للواقع فيبقى ثابتاً فى مكانه كسير الجناح . وإنما قد كون لنفسه مزاجاً بديعاً من هذه الواقعية والخيالية فى وقت واحد . فهو صاحب خيال بديع ، وهو صاحب ملاحظة دقيقة للواقع . ولذلك ترونه دائماً قانعاً وترونه دائماً طامعاً . وهو من الأشخاص النادرين الذين يجمعون بين الطمع والقناعة والطموح والاعتـدال .

سيدى الزميل العزيز . إن هذا المجمع هو الذى دعاك إلى أن تشرفه بالمشاركة فى عمله الخطير .

لم تسع إليه ، ولم تفـكر فى السعى إليه ؛ ولم يخطر لك قط أنك ستكون عضواً من أعضائه . وإنما فوجئت بهذه العضوية مفاجأة لأن أعضاء هذا المجمع يقدرونك أكثر مما تقـدر نفسك ، ويكبرونك أكثر مما تـكبر نفسك ،

وينتظرون منك أكثر مما تنتظر من نفسك . وهم قد فاجئوك بهذا الاختيار ، وهم بذلك قد أعفوك من بعض التقاليد الأكاديمية التى ما أظن أنك تتردد فى أن تؤديها لو أنك حرصت على أن تكون عضواً فى هذا المجمع . فمن التقاليد الأكاديمية أن يسعى من يرشح نفسه إلى المجمع وأن يطوف بالأعضاء يستعطفهم ويستعينهم ويطلب منهم التأييد ليظفر بهذه العضوية .

أعفيت أنت من هذا ، وأعفيت من هذا إلى حد أنك لست فى حاجة إلى أن تشكر المجمع ولكن المجمع هو المحتاج ، أو أشعر أنه مضطر أن يشكر لك أنك قبلت عضويته .

فأنت فى رأى نفسك فقيه ، وأنت فى رأى نفسك صاحب قانون واقتصاد وسياسة ، وأنت فى رأى نفسك بعيد — كما تظن أو كما تقول — عن مسائل اللغة وأساليبها ودقتها وسلامتها أو غير هذا من الموضوعات التى يعنى بها هذا المجمع .

أنت فى رأى نفسك كذلك . ولكنك — وأستطيع أن أقولها الآن بكل شجاعة — مخطىء كل الخطأ فى هذا الرأى . فما أعرف بين المثقفين الممتازين من المصريين أقدر منك على تحديد الألفاظ . وما أعرف بين المثقفين الممتازين أقدر منك على تحديد المعانى قبل أن تختار لها اللفظ . وقد كان أناتول فرانس يقول : إن الكلمات إنما هى المعانى . واللغة التى ليس لها معان لا يمكن أن توجد فيها الكلمات . وأنت تشعر بهذا أدق الشعور وأدقه وأعمقه . وأبغض شىء إليك اللفظ الذى لا يدل على شىء ، وأبغض شىء لديك هذه الألفاظ العامة الغامضة التى لا ترسم معانيها رسما دقيقاً محدداً بحيث لا تكون موضع الجدل . فأنت من هذه الناحية أقدر المثقفين على هذا التحديد الذى يحتاج إليه المجمع ، الذى عند ما يريد أن يضع معجما لغويًّا أو يحدد مصطلحاً لا أظن أن أحداً يستطيع أن يشاركك فى هذا إلا أن يكون أستاذنا عبد العزيز باشا فهمى . فكلا كما حريص كل الحرص على دقة الألفاظ ورسم الخواطر رسما يوشك أن يكون نظريًّا ، وكلا كما يريدها أن ترى رأى العين أو تلمس بالأيدى .

ثم أنت فيما ترى صاحب فقه . وأظنك توافقنى على أن أحداً لم يخدم اللغة العربية فى تاريخها القديم كما خدمها الفقهاء . فهم الذين مهدوا هذه اللغة ويسروها وجعلوها حقًّا لغة علم وفلسفة وتفكير عقلى عميق دقيق .

كل شىء فيك كان يؤهلك لتكون عضواً فى هذا المجمع : ثقافتك الواسعة العميقة . ترفك العقلى الممتاز . حرصك على الدقة والتعمق . حرصك على التصوير الصحيح . بغضك للألفاظ الغامضة . حبك للألفاظ المحددة الواضحة . شعورك المترف . ذوقك المصفى . طبعك النقى . عقلك الذكى . قلبك الكبير .

كل هذا كان يؤهلك لتكون عضواً فى هذا المجمع . وكل هذا الذى دعانا لأن نفاجئك بهذه العضوية .

فاذا كان لى أن أقول شيئاً هو أن أهنىء المجمع بأنك أصبحت عضواً فيه ، وأن أهنئك بأنك طوفت ما طوفت ، ذهبت إلى الحجاز ناشئاً وستذهب إليه قريباً إن شاء الله . ذهبت إلى أوربا وأمريكا ، واختلفت بك الأندية ، واضطربت فى حياتك أشد ما يضطرب به الناس فى الحياة . ثم عدت آخر الأمر إلى هؤلاء الأصدقاء — هؤلاء الأصدقاء الذين لحظوك وأنت شاب تصعد فى الجبل تصعيداً رفيقاً ، وكانوا ينظرون إليك محبين مشجعين . وهؤلاء الأصدقاء الذين صعدوا معك فى الجبل ، فشاركوك فى مشقة هذا التصعيد . ثم شاركوك فى الوصول إلى هذا المركز ، الذى تستطيعون فيه جميعاً أن تخدموا مصر . ثم هم يرمقونك فى شىء كثير جداً من الاكبار والاعجاب ، ومن الغبطة أيضاً ، يتمنون أن يتاح لهم بعض ما أتيح لك من الأسباب التى أدت بك إلى هذه المنزلة الرفيعة .

كلمة حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا

اسمحوا لى — وإن كان برنامج الحفلة لا يأذن لى بالكلام بعد الأستاذ الدكتور طه بك حسين إلا أن عبارة الأستاذ الدكتور طه أتى فيها ما يضطرنى اضطرارا ألا أكتم شهادة أعرفها ، وأنا ممن لايكتمون الشهادة قطعاً .

قال الأستاذ طه فى آخر عبارته إن عبد الحميد بدوى باشا وإياه كانا ممن يصعدان فى الجبل كيما يدركا القمة التى وصل إليها من سبقوه فى السن ويسميهم الشيوخ .

ثم قال فى عبارته الأولى إن هؤلاء الشيوخ كانو يتلقون من وصل إلى القمة من هؤلاء المصعدين الشبان ، يتلقونه على اعتبار أنه ابنهم الأكبر .

الواقع فيما يتعلق بعبد الحميد بدوى باشا – وأترك الدكتور طه بك – أؤكد لإخوانى أنى وقد تفضل الأستاذ طه بك فذكرنى من بين هؤلاء الشيوخ ، وقد قبلت قوله هـذا لأنى أنا شيخ حقًا لأنى فى الخامسة والسبعين . أؤكد لكم أن عبد الحميد باشا بدوى حينما وصل إلى القمة تلقاه هؤلاء الشيوخ الذين يشير إليهم الدكتور طه بك . تلقوه على أنه ليس ابنهم الأكبر ، بل شيخهم الأكبر .

لا أقول هـذا بغير دليل ، لأنى ما تعودت أن أقول خلاف ما أعتقد ، وخلاف ما الدليل قائم لدىّ عليه .

عبد الحميد بدوى باشا لم أتصل به كثيراً فى شبابه ، وفى مراحله الأولى التى أشار إليها الأستاذ طه بك . وإنما اتصلت به فى سنة ١٩٢٥ حينما كنت وزيراً للحقانية ، وكانت اللجنة الاستشارية – لجنة القوانين – تعقد تحت رئاسة وزير الحقانية . كان رئيس قلم القضايا فى ذلك العهد الأستاذ الكبير « كازيلى » وكان معه من المستشارين رجال أقوياء جدًّا فى فقه القانون . كان معه « راتليه » و « روستيه » وكان معه من الفقهاء الأجانب الكبار ، وكان معه عبد الحميد بدوى . فالذى أشهد به وأقرره أنهم كانوا إذا تناقشوا فى مسألة من المسائل وأخذ الرأى فيها يضطرب ، كان عبد الحميد بدوى يفوقهم جميعاً رأيا ، وكانوا جميعاً يخضعون لما يبدى من الرأى . تأتى الكلمة فكل يبدى فيها رأيه وكل يناقش فى رأيه هذا . وعبد الحميد بدوى متى أبدى رأياً أيده تخضع لرأيه الكل وهذه شهادة أقررها كما أقررها بين يدى الله .

لذلك لا تظنوا أن الأستاذ طه بك بالغ أية مبالغة فيما وصف به عبد الحميد بدوى باشا من حال كان عليه فى شبابه ، أو عند ما تقدمت به فى السن . بل عبد الحميد باشا بدوى شأنه هو هذا الشأن الذى يعتبره فيه الشيوخ شيخاً لهم كما قلت . وهذه هى الشهادة التى أردت أن أوجهها أمام حضراتكم .

خطبة حضرة صاحب المعالى عبد الحميد بدوى باشا

سادتى

إن مجمعكم الموقر ليبدو فى أوائل عقـده الثانى ركناً من أركان نهضة هذه البلاد كأنه وهى أبعد منه عهداً وأطول عمراً كان قريناً لها منذ قامت . وليس هذا من خدعة النظر أو من تصوير الخيال ، وإنما الحاجة الشديدة إليه هى التى جعلته غداة إنشائه قد ركب فى بنية تلك النهضة وائتلف مع نسيجها ، فهو جزء منها لابد منه ولا غنى عنه . غير أنه لم يكن ليبلغ تلك الغاية لو لم يكن قد ألف من جهابذة أسبغوا عليه من فضلهم ، وأفاضوا من عملهم ، ما اتسق به واقع الحال مع ما عقد عليه من آمال .

وليس هذا مجال القول فى تاريخ المجامع اللغوية وأثرها فى تطور اللغات . ثم إنه سبقنى إليه فاضل من الزملاء إذ عالج موضوعاً لم يدع مقالا لقائل . وقد أدرك الناس أن اللغات سواء قيل فى نشأتها إنها توقيف أم قيل إنها اصطلاح — كائنات حية ، تعرض لمفرداتها الولادة والموت ، والتغير والتحول ، تارة فى أشكالها وصورها الظاهرة وطوراً فى معانيها ، كما تعرض لها فى جملتها الولادة والموت والصحة والعقم . وهى أبداً فى انتقال من حال إلى حال . وقد يلوح أن الأمر فى هذا الانتقال فوضى ، ولـكنه يجرى فى الواقع على نظام من قوانين نفسية وأخرى اجتماعية وغيرها صوتية ، وعلى سنن من طبائع الحياة لا يعسر إدراكها وتقصيها . وهى فى هذا الانتقال عرضة دائماً للاعوجاج والشطط ، فهى بحاجة إلى من يقوّم ويسدد ويصحح . وكثيراً ما يقوم بذلك الموهوبون من الـكتّاب والشعراء أو العلماء الذين يتوفرون على الأبحاث اللغوية . ولـكن ذلك كله لا يغنى عن الجماعة تتداول وتتبادل الرأى وتمحص الوقائع وتستخلص الحقائق . فإن أنشئ مجمع لغوى فإن وظيفته تـكون معدة حاضرة .

وإن يكن أى بلد فى أى زمن ، يطيب حالا ، ويصيب خيراً ، بإنشاء مجمع لتدبير أمر لغته ، فإن إنشاء مجمع للغة العربية ، فى مصر ، وفى الآونة التى أنشىء فيهـا ، جدير بأن يعتبر من الأقدار السعيدة والأحداث الفريدة .

ولست بالقائل إن لغتنا أفضل اللغات وأوسعها ، فإنما يستطيع ذلك من وعاها ووعى غيرها ، وأحاط بها جميعاً إحاطة كاملة ، فكان قادراً على أن يرسل فيها حكما يبين الفاضل والمفضول . ولـكنى أشعر ، فى غير زهو أو مكاثرة ، بأنها عزيزة علينا ، وأنها لم تعدلها فى نفوسنا لغة أخرى مهما غنيت بالآثار ، ولها بوصف أنها لغة الـكتاب عزة فوق عزة وسلطان على النفوس لا يجارى .

ولـكن هذه اللغة العزيزة ظلت قروناً طويلة فى حال أشبه بالسبات العميق لأن أبناءها كانوا فى مثل تلك الحال . واللغـة وآثارها ليست إلا خلاصة للمدنية التى هى أداة للتعبير ووسيلة التفاهم فيها ، ورمز تلك المدنية ومظهرها . وإنما تنتعش اللغات وتزدهر بما تمد به من أفـكار وصور ، وما ينفث فيها من روح ، ويبعث فيها من حياة .

ومن طبائع عصور التأخر أن يعظم فيها شأن اللغة الدارجة والعامية ؛ فإن انـكماش الخاصة يجعل لها الغلبة والسيادة . على أنه بالرغم من أن تلك اللغة قلما تدوّن ومن أنها من أجل ذلك يسهل زوالها أو تناسخها فإن حاضرها ينطوى على صور وأخيلة ومجازات لا تجافيها البراعة أو الإبداع . أما اللغة المـكتوبة فقد انعكس عليها ما أدرك الأمم العربية من خمول وتأخر وعقم بالأفذاذ .

وبعد فإن اللغة العربية كانت بطبيعة أصولها تعيش بمعزل عن اللغات الأخرى . واللغات كغيرها من الـكائنات الحية تنتفع بالتلقيح والتوليد ، وتزدهر بالمنافسة والتقليد .

نعم ! اتصلت العربية باليونانية حين نقلت عن هذه الأخيرة المؤلفات العلمية والفلسفية . غير أن اللغة العربية إذا كانت قد أفادت بهذا الاتصال فى مادتها العلمية فقد بقيت حيث كانت من ناحية الأدب والفن . ومضت تنمو وتتطور بملـكاتها الخاصة ، وبقدر غير كبير من التأثر بملـكات اللغات الأخرى ، وأنتجت عصراً لم يخل من الابتكار ومن روائع الآثار .

وقد يكون التأثر بتلك اللغات جاء من طريق نقل بعض آثارها ، مما لم يبلغنا خبره على وجه التحقيق ، أو من انتقال بعض أهل تلك اللغات إلى الإسلام ، أو اشتراكهم مع المسلمين فى بعض شؤون الحياة . ومهما يكن من ذلك كله فإن اللغة العربية كانت طوال تلك القرون فى نواحى الأدب والفن تـكاد تعيش مكتفية بنفسها مستقلة عن غيرها .

ولـكن الأمر ليس كذلك فى أيامنا هذه . فإن اللغة العربية لم تعد تستطيع أن تعتزل غيرها من اللغات . وقد نشأت مدنية اصطلح على تسميتها بالمدنيـة الغربية ، محلها البلاد التى تدين بالمسيحية ، وقوامها مزاج من التعاليم الخلقية المسيحية ، ومن طائفة من عادات وتقاليد ونظم وطرائق فى المعيشة والتفكير ، مصدرها المدنيتان اليونانية والرومانية ، وصور من حياة القرون الوسطى ، وآثار من المدنية العربية ، كل ذلك جعل يتفاعل ويولد فى ظل حوادث التاريخ جديداً تلو جديد حتى انتهى إلى صورتها الأخيرة . ولهذه المدنية لغات عدة ، ولـكل منها آداب جليلة . اشتقت كل أسرة منها من مصدر قديم ، بينها كثير من وجوه التشابه ، كما أن لـكل منها طابعاً خاصا .

وقد دانت الدنيا فى العصور الحديثة لهذه المدنية وأهلها ، وهبطت تلك المدنيـة بلاد الشرق تستعمر تارة ، وطوراً تفرض نفسها ، بفضل ما خلقته من سهولة المواصلات وسرعتها ، وما ابتدعته من وسائل النفوذ والتأثير .

وظلت المدنية العربية بخير ما بقيت بعيدة عن الاحتكاك بالمدنية الغربيـة وآثارها . وإن يكن ذلك الخير ، أن اللغة بقيت محفوظة فى بطون الـكتب ، قلّ أن تتصل بها الحياة ، وأن ماعداها من آثار تلك المدنية أخذ يدركه الأفول . ولـكن الغير والأحداث ، لم تجعل لهـا مناصاً من الدخول فى غمرة المعترك العالمى . وهى إما تركت نفسها تغزوها المدنية الغربية فلا تُبقى منها على قليل أو كثير ، وعند ذاك يمحى طابعها الخاص ، وتتقطع الأوصال بينها وبين ماضيها . وإما اعتصمت بركن من البقاء ، وعملت على الملاءمة والتوفيق بين مقوماتها وبين ما تأتى به المدنية الغربية من مزايا وفوائد . وهو هـذا الطريق الأخير الذى أخذت به مصر وغيرها من البلاد العربية .

وليس ما قدمت جديداً عليـكم أو غريباً عنـكم ، وإنما أردت أن أسوقه تمهيداً لبسط معضلة فى أمر اللغة وتطورها .

ذلك أن العربى الذى يأخذ من المدنية الغربية بسبب ، لا يسعه أن يتجنب نوعاً من الازدواج النفسى والعقلى . فهو يحس بنفسه العربيـة ضروباً من الأحاسيس ، وهو فى الوقت نفسه — وبقدر ما يكون قد أصاب من آداب لغة غربية أو أكثر ومن فنون أهل تلك اللغة أو اللغات — يتذوق ويحس أذواقاً وأحاسيس أخرى ، ولا يجد سبيلا إلى استشعارها أو الإعراب عنها إلا بما تفد

إلى نفسه من وسائل تلك اللغة أو اللغات وآداب أهلها وفنونهم . فإذا أراد أن يحيل تلك الأذواق والأحاسيس عربية ، ألفى دون ذلك صعوبات غير قليلة .

كذلك لا يسع ذلك العربى نفسه أن يتجنب فى سياق الحكاية أو الترسل أو التدليل بعض المعانى والصور التى يكون قد ألفها من ممارسة آداب أجنبية . وقد تكون نابية فى العربيـة ، لا لأن العربية لا يتسع صدرها لمثلها ، ولـكن لأن النقل المادى أو الحرفى يجعلها كذلك . ولا شك فى أن العربيـة تستسيغ مثل تلك المعانى والصور ، لو صُبّت فى قوالب عربية . ولعل القوالب موجودة ولـكنها تحتاج إلى تحقيق واستكشاف .

وقد استحدثت المدنية الغربية رقيًّا كبيراً فى العلوم والفنون وفى شؤون الحياة . وكان من آثار ذلك الرقى ، أن نزل علينا وابل من الألفاظ والاصطلاحات التى تحكى الفرق بين ما بلغته المدنية العربيـة ، حين وقفت وأصابها الركود ، وبين ما وصلت وتصل إليه المدنية الغربية ، منـذ مضت تركض ركضاً فى استفتاح مغاليق العلوم ، واستكشاف المجهول من أسرار العالم وقوانينه ونظمه .

ونفذ هـذا السيل الجارف من الألفاظ والاصطلاحات إلى الألسنة بصور تختلف باختلاف مصادرها ، وتتفق فى العجمة والغرابة والوحشية . وتعرّض اللسـان العربى الصحيح للاختلاط والتشويش . ولم يكن بد إذاً من أن تتولى هيئة منظمة قديرة حفظ ذلك اللسان والقيام على سلامته . وللكتّاب والنقاد فى هـذا الشأن فضل وأى فضل ، فهم هداة الأمة ومقومو لسانها بما يكتبون وينقدون . غير أن الخطر أكبر من أن يجتزأ فيـه بهذه الوسيلة ، وأجل من أن تهمل معه وسائل توحيد العمل وتركيزه ، وتجميع القوى والكفايات ، فى مجمع يرصد ويحقق وينتهى إلى توصيات ؛ فإن تلك الوسائل جديرة بأن تهيىء لتلك التوصيات ، ما يجب لها من الهيبة والاحترام ، ومن الذيوع والانتشار .

وقد عنى المجمع بطائفة كبيرة من هذه الألفاظ والاصطلاحات ، ووضع لها ما يقابلها من الألفاظ والاصطلاحات العربيـة السليمة . وهو ماض فى معالجة غيرها وفى وضع ما يجب لمعرفة اللغة وضبطها من معاجم . وجهده فى كل ذلك مشكور وإن ظل أكثره مجهولا . ولو قيس بالوقت الذى سلخه فى القيام به كان أجدر بالشكر والثناء .

وأكبر ظنى أن العناية بهذا الغرض من أغراض المجمع، لا تنافى معالجة الازدواج الذى أشرت إليه. فإن الأمر فيها لا يعدو تحديد ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب، تجعل اللغة ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر. وقد جعل هذا التحديد فى مرسوم إنشاء المجمع من أولى غاياته.

ذلك أن اللغات الغربية تتضمن صوراً من الكلام ومعانى وأساليب وأخيلة ليست من ذوق اللغة العربية، وإن تكن طرائق التفكير الحديثة تسيغها بل تقتضيها فى بعض الأحايين. فما لم تهضم اللغة العربية، بحسب أصولها وأوضاعها، تلك الصور والمعانى والأساليب والأخيلة وتتمثلها وتحيلها عربية الوجه، ظل الازدواج قائماً وكيان العربية مهدداً.

وعندى أنه قد لا ينقص اللغة العربية ما ينبغى من أسباب الأداء لتلك الصور والمعانى والأساليب والأخيلة، ولكن المتداول بيننا من مادة اللغة لا يلوح أنه يفى بمثل هذه الحاجة.

وقد يكون من الحق أن اللغة العربية لم تنته إلينا بكليتها، وأن الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير، وأن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله. ولكن ما علينا من ذلك. وإنه ليكفى أن ننتفع بما انتهى إلينا انتفاعاً صحيحاً لجعل لغتنا صالحة لما نريد لها، متسعة لكل قديم وجديد. وها نحن أولاء فى العصور القريبة منا نرى الأمة تتخذ لغة من اللغات، ولا تزال بها تضيف إليها وتنقص منها، وتغير وتحول وتستحدث فى ألفاظها وتراكيبها، فإذا بالفرع يختلف عن الأصل دون أن يعزب على أهل الأصل فهم اللغة الجديدة أو العكس، وإذا بهذا الاختلاف لا يخل بما لكل منهما من حسن السبك ومتانة النسج — تلك هى قصة اللغة الانجليزية فى أمريكا.

وكما أن الاستقلال السياسى يجب أن يكون قبلة كل بلد يعرف قدر نفسه ويحترمها، من غير أن يحول ذلك دون قدر من التعاون والتعاضد الدولى. كذلك يجب لكل لغة أن تستقل بأوضاعها وبصورها وبأساليبها الخاصة، من غير أن يحول ذلك دون الاستعارة من غيرها من اللغات والتأثر بالآداب الأخرى. وليس من الاستقلال فى شىء أن تقرأ عبارات وصيغاً لا تفهمها على وجهها إلا إذا قرأت، من خلال الكساء العربى الذى يطالعك، ما أريد نقله من عبارات

أو صيغ اجنبيــة . ومما يؤسف له أن تكون دواعى السرعة فى الـكتابة من أسباب هذا البعد عن رسوم العربية فى الخطاب .

ولا شك فى أن القادرين من الـكتّـاب لا يقعون فى مثل هذا الخلط ، ولـكن قدراً من التنظيم والتوحيد والتشاور جدير بأن يحفظ للغة سلامتها ، ويبقى عليها مع افتتانها ، قوتَها وبهجتها . وهو ما قمتم وتقومون به إن شاء الله جماعة وأفراداً .

وقد تقدمنى فى هذا المحل كبير من كبراء مصر والرئيس السابق لهذا المجمع . . عرفته فى صدر حياتى العامة بعد حوادث الثورة المصرية — وكنت إذ ذاك قاضياً وكان مستشاراً بمحكمة الاستئناف بدائرة النقض — فى مجالس المغفور له ثروت باشا ، وهو من تعرفون كبير مكانته وصادق أثره فى التاريخ المصرى ، ومن لا أنسى أبد الدهر فضله علىّ . وكان رفعت باشا زميلا لثروت باشا وخلفه فى وظائف وزارة العدل . وتولى بعد ذلك الوزارة عدة مرات ، وكان نصيبه فى أكثرها وزارة المعارف ولعلها كانت أحب الوزارات إلى نفسه ، ثم تولى رئاسة مجلس النواب أكثر من مرة وعقدت له رئاسة هذا المجمع ، وربما أخطأته رئاسة أخرى كانت منه قاب قوسين أو أدنى .

ويكفى لعرفان قدره أن اسمه كان فى صدر الأسماء التى عند ما تمس الحاجة إلى رجل قدير أو عند ما يفتقد الأكفاء . واشتهر فى خاصة حياته بشغفه بالأدب وبأنه يقرض الشعر ، وكان ذلك نادراً فى حياته . ولعل أمره فى ذلك لم يزد على الهواية ؛ فقد كان لا يكتب أو ينظم القصيدة إلا فى المناسبات الخاصة ، أو حين تضطره الظروف لإلقاء خطبة مثلا .

وإن قارئه ليتبين أنه يعنى بتخير الألفاظ وبجزالة الأسلوب عنـاية تتجاوز المألوف حتى بين الأدباء . وكان يسعفه فى ذلك سعة علمه باللغة ومفرداتها . وربما دعاه تبحره فيها إلى إيثار الغريب حين يجده أحسن أداء أو أصح وضعاً . وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها ، وقد يرميه البعض بالتشدد . ومن سنن الزمان أن يكون خلفه فى هـذا المجمع من دعاة الترخص . على أنى لا أقول بالترخص إلا بقدر التيسير وفى حدوده . وإنما يستطيع أن يتشدد من كان مثل سلفى فى حظه من العلم باللغة ، وفى توفره على دراسـتها وولعه بالتنقيب فيها .

وقد جاء اختياركم لى للمحل الذى كان يشغله ذلك الأديب الكبير شرفاً أعتز به على وجه الزمان . وما كنت لأطمح له ولكن فضلكم أبى إلا أن يجاوز قدرى ويسبق أملى . فلن أفيكم حقكم من الشكر على هذا الاختيار أوأفى زميلى وزير المعارف على عرضه واستصدار المرسوم به . وإنى لأدعو الله أن يبارك فى عمل المجمع وأن يحوطه بعطف حضرة صاحب الجلالة الملك وتأييده . حفظه الله ذخراً لمصر ، وجعل عهده عهد يمن ورخاء .